## عفاف زريق في لوحاتها الجديدة

# من فصول بيروت الدقيقة الى ربيع واشنطن المتغير

□ واشنطن – من هنري زغيب:

تشكيل

■ عن قسطنطين زريق، والدها، اخذت نظرة الانسان الكوني. وعن بيروت، مدينتها، اخذت نفحة المدينة الكوزموبوليتية. وجاءت الى واشنطن. منذ سنوات (١٩٨٣)، وحملت معها مناخ تلك المدينة وملامح ذلك الانسان، فاذا في لوحاتها تجريدية المستقبل وطليعية الماضي.

عفاف زريق، في معرضها الجديد (*) تواصل تلك الرؤية وتنظر الى البعيد اكثر.

بيروت في قلبها، وواشنطن في عينيها، فالى ايهما تصغي؟ لا حيرة في الجواب: انها المدينة الكوزموبوليتية نفسها، وانه الانسان الكوني اياه.

شقان في معرضها، لتنهيدة واحدة من اربعين عملاً على الورق المقوى. رئتان لصدر واحد. «ربيع واشنطن» و«غابات اكسفورد». ولكنك، من ريشة عفاف زريق، لا عليك ان تنتظر ورودا ربيعية انطباعياً، ولا اشجاراً واقفة تعبيرياً. مع عفاف زريق، ترى ريشتها كيف تعكس فيها وفيك ذلك الربيع وهذه الاشجار.

نبدأ من الربيع؟

لا ضرورة للاستفسار. هي ذي عفاف تختصر، لرهط من الاميركيين في معرضها، كل ما في قلبها عن ربيع واشنطن الذي باتت أليفته منذ اعوام، بعدما غادرت ربيع الدم في بيروت:

– انا جئت من لبنان، البلاد التي تعبق بالالوان المخملية والشوارع المكتظة. بلد صغير المساحة وتالياً مقاييس العيش فيه تخضع لهذه المساحة. ربما لذلك اخترت لهذه الاعمال قياسات صغيرة، فتبقى اعمالي حميمية وشخصية. واشنطن وديعة، وقياساً على بيروت، تبقى مدينة منظمة وهادئة نسبياً. الفصول فيها متقاطعة، بينما في لبنان يمد كل فصل يده فيسلم الى الفصل التالي في انسياب رائع نادر. واحياناً يتجانب فصلان في سمر او رحلة انس. الربيع في واشنطن يندفع في زخم، يتفجر بالوانه كما بعد طول انتظار، فيما ربيع الابيض المتوسط يطل بهدوء، وفي زمانه يولد. لم يكن سهلاً عليّ هذا الانتقال من ارض الى ارض. فالطبيعة، في منتهاها، بيتنا. والاحساس بالاتحاد فيها حتى الذوبان، يفترض طبقات واعماقاً من القبول والارتضاء. ومن القبول عندها يكون الرضا بأصداء لغتها الصامتة. لا تعبير ابلغ من صمت الطبيعة. لذا نذوق طعم افتقادها ابلغ. منذ العام الاول لوجودي في واشنطن، كان كبيراً شعوري بخسارة ما تركت ورائي في بيروت. واليوم، اراني غنمت كثيراً مما اغدقت به عليّ واشنطن. هذه الاعمال امامكم، لتقول ما اصمت عنه بعد الذي قلته.

الجولة بين ربيع واشنطن، وما قالته عفاف لزوارها الاميركيين في المعرض، تتخذ طابعاً آخر. طابع ترجمة الشعور الى خط ولون. لوحات صغيرة، شبه مربعة (٨ بـ ٨,٥٤ إنش) مكتوبة بالقلم الطبشوري والحبر والالوان المائية.

وماذا عن غابات اكسفورد؟

ايضاً وايضاً تتمدد على شرحها لزوارها الاميركيين:

– احساسي الاول كان بالعتمة الخانقة. كانت تلك الشجرات تتسامق شاهقة وتغلفني بظلالها وحضورها البرجي. لكنني بعدما ألفت الذهاب واستظلالها، اخذت ارى خيوط ضوء تتقطر عليّ من بين شقوق العتمة، ورحت اتذوق صلابة حضورها والصور المنهمرة من بين اغصانها المزروعة في العتم. عندها غمرني شعور الالفة اكثر، اخذت بين جذوع الشجر، ادور حولها، واشعر بالوحدة عن المحيط والانتماء اليها، بالمشاركة حيناً والمشاهدة حيناً آخر، وتنامى بي شعور الانغراس اكثر في اشجار الغابة ولو متفرقة. وعندها رحت تدريجاً افهم كيف اقرأ الغابة. صرت ارى في جذوع الاشجار ودوالي الكروم، في لبلابها السام واوراقها الخضراء، في حشراتها وعصافيرها، مرآة لنفسي المتناقضة. وعندها صارت العتمة الغامرة غلافاً تنبع منه افكار وتختفي، الوان وتذوب، ملامح وتتغير مع كل شعة شمس او نفثة ليل. عندئذ اخذت الريشة وبدأت، آملة ان استطيع، من خلال العتمة، ان اسحب خيوط الضوء ومعها اسحب لألواني ولوحاتي تجربة مغايرة من غابات اكسفورد.

سوى انها تفرح من غنمها في هذه التجربة المغايرة. انها ثمرة الاستقرار من دون فقدان الحنين المقلق. فهي لم تكن تعرف، حين غادرت «مدينتها»، انها ستتأقلم. كانت دائماً مشدودة الى الرجوع. لكنها، تدريجاً، بدأت تذوق عيناها ما لم يكن عقلها يحدس به. بدأت الوانها تأخذ طعم الحضور الفعلي على ارض لم تكن ارضها لكنها استقبلتها وفتحت لها ذراعيها وفرص التعبير. وهكذا من الالوان الجديدة في ارض جديدة ومناخ فني جديد، تحولت ريشة عفاف زريق من المناخ المتوسطي الشرقي اللبناني، الى مناخ صهر فيه ماضيها بحاضرها ممزوجاً بلذة الاكتشاف، عبر الطبيعة، لهوية تتسم بالغنى في كل ملمح من مكان وزمن.

هذا الملمح يجعلها ذات تمايز. في مقال عن المعرض، كتبت «الواشنطن بوست» نقداً معمقاً ركزت فيه على الاعمال الصغيرة الحجم التي «نتذكر معها اعمال بول كلي، لكنها مشحونة اكثر بالذكريات وباسترجاع المكان الاول الذي جاءت منه الفنانة».

وانه باق، في ثباته، هذا المكان الاول، يرافقها منذ البدايات، خريجة الفنون الجميلة من الجامعة الاميركية في بيروت (١٩٧٠)، وجامعة هارفرد (١٩٧٢) في الفن الاسلامي، واستاذة تاريخ الفن في كلية بيروت الجامعية (١٩٧٣ – ١٩٨٣)، وجميعها مراحل كانت لها تحضيراً لانتقالها الى واشنطن كي تبدأ، من وجع النوستالجيا، رحلة جديدة توصلها اليوم الى ربيع واشنطن وغابات اكسفورد، فتتحرر من وجع الحنين وتوظفه لتخرج منه حنيناً من نوع آخر: الفن للفن.

لكنه حنين تضبطه قواعد ثابتة. فحتى في تجريدياتها الجديدة، تتجلى تجربتها الاولى مع الفن الاسلامي، في تعددية التعبير، او تمازج الخطوط والالوان مع المدى وفن العمارة، خصوصاً في روحانية هذا الفن الآتي من الشرق وتراثه الروحي.

ومن الفن الاسلامي غنمت عفاف زريق غنى الخط من غنى الروح وثراء اللون من ثراء التراث، فجاءت لوحاتها عن ربيع واشنطن تحمل عبق الاصالة الوجدانية الى مرآى الطبيعة التي لولا الروح لكانت طبيعة ميتة كمزهرية جامدة في لوحة انطباعية. وعفاف زريق لم تشأ ان تكون انطباعية. شاءت ان تطبع انفعالها بتجربتها المصقولة من قهر وبعاد، لتنسج منها ربيعاً لواشنطن يبقى ابن واشنطن لكنه يتطعم برؤى متوسطية تحمل بخور الشرق الى نحاسية الغرب.

---

(*) – غالري فاوندري – واشنطن، جورج تا…